

مكتبة الكتب المسيحية

الموقع القديم

http://coptic-books.blogspot.com

الموقع الجديد :

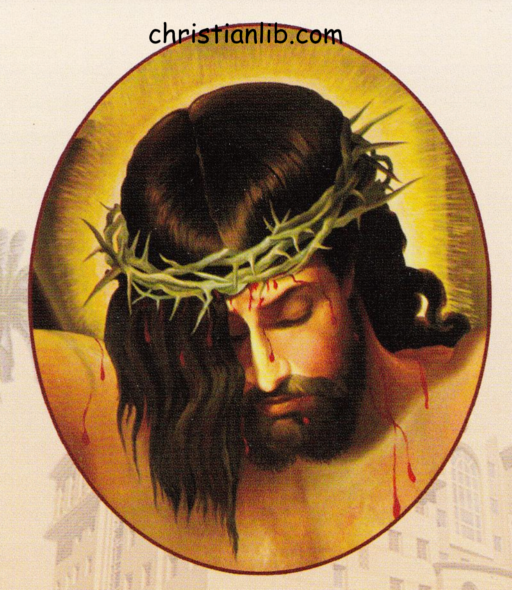
http://www.christianlib.com

انضم لجروب ماذا تقرأ هذه الأيام (النسخة المسيحية) ؟

https://www.facebook.com/groups/530822643657367

انضم لصفحة : مكتبة الكتب المسيحية :

https://www.facebook.com/copticbooks4u/



الأسبوع العظيم ... والتسبيح

للقديس يوحنا الذهبي الفم



تقديم
الأنبا إرميا
الأسقف العام
وسكرتير قداسة البابا شنوده الثالث

ترجمة
ريمون يوسف رزق
باحث
بالمركز الثقافي القبطي الأرثوذكسي

ⲡⲓⲡⲁⲧⲣⲓⲁⲣⲭⲏⲥ ⲛ̀ⲣⲉⲙⲛ̀ⲭⲏⲙⲓ ⲛ̀ⲟⲣⲑⲟⲇⲟⲝⲟⲥ
بطريركية الأقباط الأرثوذكس
Coptic Orthodox Patriarchate



The Coptic Orthodox Cultural Center
المركز الثقافى القبطى الأرثوذكسى

الأسبوع العظيم ... والتسبيح

للقدِّيس يوحنَّا الذهبي الفم

تقديم / نيافة الأنبا إرميا

الأسقف العام وسكرتير قداسة البابا شنوده الثالث

ونائب رئيس المركز الثقافي القبطي الأرثوذكسي

فبراير ٢٠١٢

ترجمة

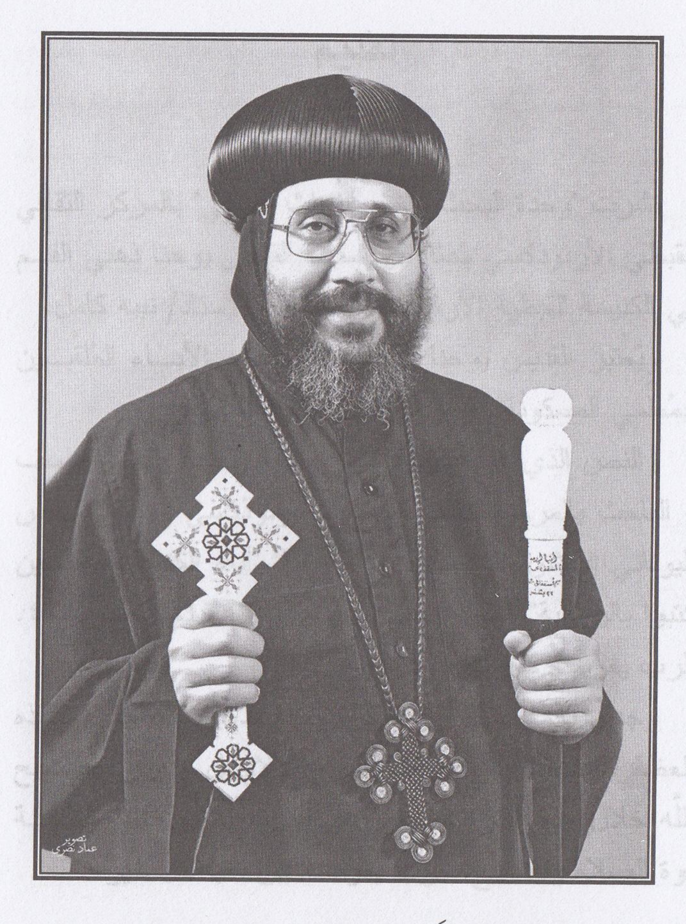
ريمون يوسف رزق

باحث بالمركز الثقافي القبطي الأرثوذكسي



قداسة البابا شنوده الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية الـ ١١٧



نيافة الحَبر الجليل الأنبا إرميا

الأسقف العام وسكرتير قداسة البابا شنوده الثالث

تقديم

....

نَشَرَت "وحدة البحث ونشر التُراث القبطي" بالمركز الثقافي القبطي الأرثوذكسي بحثاً عن "مكانة القديس يوحنا ذهبي الفم في الكنيسة القبطية الأرثوذكسية" للمتنيح الأستاذ/ نبيه كامل.

ويُعتبر القديس يوحنا الذهبي الفم أحد الآباء المُلقَّبين "بمُعلِّمي المسكونة"، وهو من أكثر الآباء إنتاجاً.

والنص الذي بين أيدينا قام بترجمته الأستاذ/ ريمون يوسف - الباحث بالمركز الثقافي القبطي الأرثوذكسي - عن النَّص اليوناني المنشور في مجموعة "ΕΠΕ" "آباء الكنيسة الذين كتبوا باليونانية" الصادرة في تسالونيكي ١٩٧٣م الجزء ٤٣. الرب يعوضه كل خير.

وجدير بالملاحظة أن القديس يوحنا الذهبي الفم في هذه العظة لا يتحدَّث عن أحداث أسبوع الآلام بل يَرَى أنَّ تسبيح اللَّه خلال هذه الفترة الوجيزة هو أهم شيء، ويُظهِر عظمة قوة الصلاة والتسبيح. الرب يُعوِّضه عن تعبه كل خير.

ليجعل اللَّه هذا الكتاب بركة لكثيرين بشفاعة أُمِّنا القديسة العذراء مريم، والقديس مارمرقس الإنجيلي الرسول،

وبصلوات أبينا المُكرَّم صاحب القداسة البابا المُعظَّم الأنبا شنوده الثالث أدام اللَّه حياته سنينَ عديدة وأزمنة سلامية مديدة. آمين.

١٤ أمشير ١٧٢٨ش، الموافق ٢٢ فبراير ٢٠١٢م

تذكار نياحة القديس ساويرس بطريرك أنطاكية

الأنبا إرميا

الأسقف العام

وسكرتير قداسة البابا شنوده الثالث

ونائب رئيس المركز الثقافي القبطي الأرثوذكسي بالأنبا رويس

مقدمة

حياة القدِّيس يوحنا الذهبي الفم:

إن حياة يوحنا الذهبي الفم تُشبه من نواحي كثيرة حياة عظماء الكنيسة الذين لمعوا في القرن الرابع مثل: القديس أثناسيوس الرسولي والقديس كيرلس عمود الدين والقديس باسيليوس الكبير.

وقد وُلد في أنطاكية حوالي سنة ٣٤٧م من أب يُدعى سيكوندوس، توفى بعد ولادته بزمن قليل، ومن أم يونانية تُدعى أنثوسه. صرفت حياتها إلى تنشئة ابنها أرفع تنشئة.

انعزل سنتين بمفرده في إحدى المغائر في جبال أنطاكية منكباً على العبادة والتأمل والنسك، ثم عاد إلى الكنيسة ورُسِمَ شماساً سنة ٣٨١م وبدأ يضع أبحاثه في النسك والرهبنة والبتولية والزواج، وذاع صيته في الخطابة.

رُسِمَ كاهناً سنة ٣٨٦م. وفي سنة ٣٩٨م رُسم أسقفاً على القسطنطينية بيد البابا ثيؤفيلوس الإسكندري، فلم يتراخَ بل كان حازماً شديداً، فاصطدم بالإمبراطورة أفذوكسيا التي وبّخها على أعمالها، فنفته، إلاَّ أن الشعب ثار، فعاد بعد يوم واحد.

رفض القديس تدشين تمثالها الذهبي، فنفته إلى كوكوسوس الأرمينيَّة لمدة ٣ سنوات، بعث فيهـا الكثيـر مـن الرسـائل التشجيعية لشعبه. وبعد وقتٍ قليلٍ صدر أمر آخر بإرساله إلى مدينة بيتوندا، ولمشقة الطريق والمعاملة السيئة التى لاقاهـا، تنيح القديس أثناء السفر سنة ٤٠٧م، تاركاً تراثاً رائعـاً مـن العظات.

كان الذهبي الفم هادئ الخُلق وديعاً، وأيضاً عملاقاً هائجـاً في وجه الأسود من أجل الكنيسة. رسائله ينبوع يفـيض مـن إنسانيته، فيغمر قلوب الإنسانية كلها. إنه كموج البحر ينساب تارة هادئاً وديعاً وتارة أخرى زاجراً هائجا. إنه خطيب ساحر البيان، رائع الأسلوب، بليغ في التعبيرات الجذابة المؤثرة.

تحتفل الكنيسة القبطية بتذكار نياحتـه فـي ١٧ هـاتور. ويُعتبر يوحنا الذهبي الفم هو أكثر الآباء إنتاجاً، حيـث تقـع مؤلفاته في ١٧ مجلداً ضمن مجموعة الآباء باللغة اليونانيـة "باترولوجيا جرايكا" P.G 47 - 64 وقد تنوعت كتاباته بين:

العظات التفسيرية:

+ سفر التكوين: ٨ عظات، تُشكِّل تفسيراً كاملاً.
+ شرح المزامير: ٥٨ مزمور.
+ سفر إشعياء: ٦ عظات.

+ إنجيل متى: ٩٠ عظة تُشكل تفسيراً كاملاً.
+ إنجيل لوقا: ٧ عظات.
+ إنجيل يوحنا: ٨٨ عظة.
+ أعمال الرسل: ٦٣ عظة.
+ عظاته على رسائل القديس بولس وتشكل نصف عظاته وتشغل الرسالة إلى رومية النصيب الأكبر من هذه العظات.

الكتابات العقائدية:

+ ضد الأنوميين: ١٢ عظة خُصِّصت للحديث عن الطبيعة الإلهية غير المُدركة.
+ ١٢ عظة للمُعمَّدين الجُدد.
+ ٨ عظات ضد اليهود.

عظات في موضوعات متفرقة:

+ عن الرحمة.
+ عن المجد الباطل وكيفية تربية الأولاد.
+ ٦ كتب عن سمو الكهنوت.
+ عن الحياة الرهبانية.
+ عن الزواج والبتولية.

عظات في الأعياد والمواسم:

+ عن ميلاد المُخلِّص. + عن الظهور الإلهي.

+ عن عيد الخمسين. + عن صلب المُخلِّص.

+ عن القيامة. + عن الصعود.

+ عن خيانة يهوذا.

مدائح للشهداء والأبرار القديسين:

مثل: أيوب، المكابيين، والقديس بولس.

رسائله:

+ ٢٣٦ رسالة ومعظمها أُرسِلت من المنفى.

+ ١٧ رسالة إلى الشماسة أوليمبيا التي كانت تعاونه في خدمته.

العظة:

هذه العظة، في نصها اليوناني، تحمل عنوان "الأسبوع العظيم"، ويُعلِّم فيها القديس يوحنا لماذا يُدعَى بهذا الاسم؟ قائلاً: "ونحن ندعوه بالأسبوع العظيم، ليس لأن أيامه أعظم من سواها، إذ توجد أيام عظيمة أخرى، بل لأن الربَّ صنع فيه لأجلنا آيات عظيمة".

جدير بالملاحظة أن القديس يوحنا الذهبي الفم في هذه العظة لا يتحدَّث عن أحداث أسبوع الآلام، بل يرى أن تسبيح اللَّه خلال هذه الفترة الوجيزة هو أهم شيء، ولذلك يترك

العنان لتعبيراته البلاغية ويتأمل في المزمور: "هللويا. سبِّحي يا نفسي الربَّ. أُسبح الربَّ في حياتي" (مز١٤٦: ١ - ٢). ويؤكد على أن بالتسبيح أطفأ الفتية لهيب أتون النار، التسبيح هو الذي حلَّ قيود بولس وسيلا وزعزع أساسات السجن (أع ١٦: ٢٥ - ٢٦).

ثم يختتم عظته بالحديث عن الصلاة قائلاً: "أرأيت عظمة قوة التسبيح؟ وعظمة تمجيد اللَّه في الصلاة؟ مقتدرة هى قوة الصلاة، فهى تجعل النفس قوية جداً لاسيما إذا اقترنت بالصوم"، وأيضاً: "إن الصلاة سلاح عظيم، سلامة داخلية، وميناء، وكنز الصالحات ونبع لا ينضُب".

تمت ترجمة هذه العظة عن النص اليوناني المنشور في مجموعة "ΕΠΕ" "آباء الكنيسة الذين كتبوا باليونانية" الصادرة في تسالونيكي ١٩٧٣م الجزء ٤٣.

نتوسَّل إلى اللَّه أن يُبارِك هذا العمل بصلوات القديس يوحنا الذهبي الفم وصلوات قداسة البابا شنوده الثالث وشريكه في الخدمة الرسولية نيافة الأنبا إرميا الأسقف العام وسكرتير قداسة البابا شنوده الثالث والمُشْرِف على المركز الثقافي القبطي الأرثوكسي، ولإلهنا القدوس مُحب البشر الآب والابن والروح القدس كل مجد وتسبيح وسجود الآن وكل أوان وإلى الأبد. آمين.

نص العظة

....

لماذا يُدعى بالأسبوع العظيم[1]:

١- ها قد قطعنا رحلة الصوم وبنعمة اللَّه وصلنا إلى الميناء، ولأننا وصلنا إلى نهاية المطاف ينبغي علينا أن نُعطي اهتماماً عظيماً لهذا الأسبوع.

فربابنة السفن يفعلون هكذا، حينما يصلون بسفنهم الضخمة المليئة بالقمح وبالبضائع، يقودونها بكل حرصٍ وخوفٍ لئلا تُصدم بالأحجار وتتحطَّم وتغرق كل البضائع. ونحن أيضاً ينبغي علينا أن نزيد من جهدنا، كي ننال جعالة تعبنا في نهاية سعينا.

والعدَّاءون أيضاً، حينما يقتربون من الجوائز، فإنهم يضاعفون سرعتهم. والرياضيُّون أيضاً، فبعد منافسات لا تُحصى وانتصارات لا تنتهي، يشدِّدون بالأكثر من سعيهم ويزيدون حماسهم عندما يقتربون من أكاليل النصر.

---

[1] العناوين الجانبية من وضع المترجم.

فلنفعل نحن أيضاً هكذا، لأن هذا الأسبوع كالميناء لربابنة السفن وكأكاليل النصر للرياضيِّين والعدَّائين، أما بالنسبة لنا، فهو مصدر الخيرات، وفيه نُجاهد كي ننال الأكاليل.

نحن ندعوه بالأسبوع العظيم، ليس لأن أيامه أعظم من سواها، إذ توجد أيام عظيمة أخرى، بل لأنَّ الربَّ صنع فيه آيات عظيمة لأجلنا:

أزال طُغيان الشيطان الذي دام طويلاً،

ولم يعد للموت سلطاناً علينا، سُحقت قوته، تجرَّد من أسلحته، قُهِرتْ الخطيئة، إنحلت اللعنة،

فُتِح باب الفردوس، وُهِبنا رسم دخول السماء،

اتحدت صفوف الملائكة مع البشر، نُقضَ الحائط المتوسط، ونُزِعَ الستار الفاصل،

بَسَطَ إله السلام سلامه على السمائيين والأرضيين، لهذا دُعيَ بالأسبوع العظيم.

وكما أنه أعظم من بقية الأسابيع، فيوم السبت [أي سبت النور][٢] هو رأسه، كالرأس بالنسبة للجسد. ولهذا السبب، فكثير من الشعب يضاعفون من جهادهم خلال هذه الفترة؛ فالبعض يُطيلون ساعات أصوامهم وأسهارهم المقدسة،

---

[٢] ما بين القوسين المربَّعين [ ] أُضيف على النص الأصلي لإيضاح المعنى.

والبعض الآخَر يقومون بأعمال الرحمة. وبهذا الاندفاع نحو الأعمال الصالحة، والنمو المتزايد من أعمال التقوى في كل سلوكيات حياتنا، فإننا نشهد ونؤكِّد على عِظَم الخير الذي صنعه اللَّه لأجلنا.

فبعد أن أقام الربُّ لعازر، أسرع كل سكان أورشليم ليروه، وشهد هذا الجمهور على أن المسيح أقام ميتاً، فكان شغف القادمين لرؤيته دليلاً على تلك المعجزة التي صنعها يسوع. هكذا، إذن، فإن شغفنا نحو هذا الأسبوع يُعدُّ شهادةً وبرهاناً على عِظَم مقدار الآيات التي صُنِعَتْ فيه لأجلنا.

المسكونة بأسرها تخرج في هذا الأسبوع لملاقاة يسوع:

أمَّا نحن فلا نخرج اليوم من مدينة أورشليم فقط، بل تخرج من كل كنائس المسكونة شعوب لا تُحصى لملاقاة يسوع، غير ممسكين بأيديهم سعف النخل، بل مُقدِّمين له بالأحرى [أعمال] الرحمة، ومحبة الخير للبشر، والفضيلة، والصوم، والدموع، والصلوات، والسهر وكل أنواع الفضائل.

وليس نحن الذين نكرِّم هذا الأسبوع فحسب، بل يكرِّمه أيضاً كل ملوك الأرض - ليس كحَدَثٍ عرضي - إذ فيه يكفُّوا عن الانشغال بالشئون العامة للدولة حتى يقدروا أن ينالوا

عُطلة يكرِّسون فيها هذه الأيام لممارسة الرياضة الروحيَّة[٣]، ولا يقفون عند هذا الحد بل يغلقون كل أبواب المحاكم ويرسلون خطابات ملكيَّة يأمرون فيها بإطلاق سراح كل من في السجون.

ولأن سيدنا صنع كل هذه الآيات لأجلنا؛ فلنعمل، نحن العبيد، أعمالاً صالحة. وكما أن المسيح نزل إلى الجحيم لكي يُحرِّر أولئك الذين كانوا تحت سلطان نير الموت، فعلى العبيد أن يتمثَّلوا بمحبة اللَّه للبشر على قدر استطاعتهم، وأن يتحرَّروا من رباطات الجسد، لأنهم لا يقدرون أن يتحرَّروا من رباطات الروح.

التسبيح للَّه:

٢- ولأننا نقدِّس هذا الأسبوع، فقد خرجت معكم لكي أقدم التعليم بدلاً من سعف النخل، ملقياً الفلسين كما فعلت الأرملة

---

٣ يقصد القديس الذهبي الفم بتعبيره "الصوم رياضة روحية" هو أن الصوم ليس هدفاً في حد ذاته، لكنه وسيلة للإهتمام بالروحيات والشبع بكلمة اللَّه، وعلى قدر ما نهتم بأرواحنا واشباعها باللَّه وبمحبته والنمو في الفضيلة نصير أُناساً روحيين. من أجل هذا رأينا سليمان الحكيم، الذي أعطاه اللَّه حكمة، عندما أهمل الروحيات واهتم بإشباع شهواته وملذاته سقط وعبد آلهة غريبة **"ومهما اشتهته عيناي لم أُمسِكهُ عنهما"** (جا ٢: ١٠). فالصوم هو رياضة روحيَّة تُقاوم الأخطاء، وتقوِّى الروح وتضبط النفس وتَعْطي صحة للجسد. (المترجم)

(لو ٢١: ٢). يُخبرنا الكتاب المقدس أن أولئك الممسكين بأيديهم سعف النخل خرجوا صارخين قائلين: "**مُبارك الآتي باِسم الرب**" (متى ٢١ : ٩). فلنخرج نحن أيضاً لملاقاة يسوع، ولنقدِّم إرادةً مفعمةً بالثمر الوافر والمُبَارك، ولنرتل مع المزمور قائلين: "**هللويا. سبِّحي يا نفسي الربَّ. أُسبح الربَّ في حياتي**" (مز١٤٦ : ١ - ٢). إن الكلمات التي رتلها داود النبي والتي سوف أقولها ليست إلاَّ إنها [نابعة] من نعمة الروح القدس.

فعندما حرَّك الروح القدس المُعزي لسانَ داود النبي، تكلَّم وقال: "**لساني قلَمُ كاتب ماهر**" (مز٤٥ : ١). وكما أن القلم لا يكتب من تلقاء ذاته، بل حينما تُحرِّكه اليد، هكذا أيضاً ألسنة الأنبياء فإنها لا تتحدَّث من ذاتها، بل من سلطان نعمة اللَّه. ولكن لماذا لم يقل داود النبي ببساطة: "لساني قلمُ كاتب" وقال: "لساني قلمُ كاتب ماهر؟" لِتَعْلَم، أيها الإنسان، أن هذه الكلمات نابعة من حكمة الروح القدس؛ ولهذا تحدَّث لسان [داود] بسهولة وبسرعة عظيمتين. فعندما يتكلَّم البشر من تلقاء ذاتهم، فإنهم يتروون، ويفكرون، ويتأخرون في الحديث، بل ويستغرقون وقتاً طويلاً، ولأن كلمات [المزمور] هذه تتدفَّق من نبع واحد، ولا يوجد ما يُعيقها، فجريان الأفكار يتغلَّب على سرعة اللسان، ولهذا قال المرتل: "لساني قلمُ كاتب ماهر"، ولا نحتاج

إلى التفكير ولا إلى الدراسة ولا إلى التعب، بل فلنرى ماذا يقول.

القديسون يحيون معنا:

فلنرتل نحن، اليوم، مع داود النبي قائلين: "**سبحي يا نفسي الرب**"، وبالرغم من أنه لا يتواجد معنا هنا على الأرض بالجسد، إلاَّ أنه معنا بالروح دائماً.

القديسون يتواجدون بالقرب منا ويرتلون معنا أيضاً. فأنصت إلى ما يقوله إبراهيم للغني (الذي قال): "**يا أبي إبراهيم، ارحمني، وأرسل لعازر... لأن لي خمسة إخوة، حتَّى يشهد لهم لكيلا يأتوا هم أيضاً إلى موضع العذاب هذا. قال له إبراهيم: عندهم موسى والأنبياء، ليسمعوا منهم**" (لو١٦: ٢٤-٢٩).

ولكن موسى رقد وجميع الأنبياء بالجسد منذ زمن طويل، والبعض منهم ترك لنا كتاباته. فإذا التقط أحد بيده صورة لطفل أو لصديق ما، فإنه يظن أنه موجود بالقرب منه ويتخيَّله من خلال صورته، فكم بالأحرى نحن الذين نتعزَّى بصحبة القديسين في الكتب المقدسة. لأن أقوالهم صارت لنا بمثابة أيقونات لأرواحهم. أتعرف أن القديسين يحيون معنا على الأرض؟ لا أحد يدعو الراقدينَ شهوداً، بينما دعى السيد المسيح قديسيه شهوداً لألوهيته، ولكي يعلِّمك أن داود يحيا بالروح معنا، فقد دعاه المسيح قبلهم شاهداً.

ولأن اليهود تشككوا في ماهية المسيح، سألهم قائلاً: **"ماذا تظنون في المسيح؟ ابن مَنْ هو؟ قالوا له: ابن داود. قال لهم: فكيف يدعوه داود بالروح ربّاً؟ قائلاً: قال الربُّ لربي: اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك موطئاً لقدميك"** (متى ٢٢ : ٤٢- ٤٤). أرأيت كيف يحيا داود النبي معنا هنا بالروح. لأنه إذا لم يكن حيّاً، ما كان قد دعاه السيد المسيح شاهداً لألوهيته، وما قال: "كيف دعاه داود بالروح رباً"، بل قال: "كيف يدعوه ربّاً". قال لهم هذا لكي يؤكد أن داود ما زال يحيا بالروح ويتحدَّث مع من كتب عنه وتنبأ به.

ولأن داود قد رتل للرب، فلنرتل نحن أيضاً معه اليوم. ألِفَ داود قيثارة ذات أوتار مائتة، أما قيثارة الكنيسة فذات أوتار روحيَّة حية؛ إنها ألسنتنا التي تعزف ألحاناً وأناشيد مختلفة حسب التقوى. وأيضاً النساء، والرجال، والشيوخ، والفتيان، فبالرغم من أنهم متفاوتون في الأعمار، لكنهم في الوقت ذاته يرتلون بانسجام؛ لأن الروح القدس يوحِّد أصواتهم معاً في صوتٍ واحدٍ، ويجعل الجميع في سيمفونية عذبة التسبيح. كما دعي داود نفسه كل نسمة وكل الطبائع نحو التسبيح قائلاً: **"كلُّ نسمةٍ فلتسبِّح الربّ"** (مز ١٥٠ : ٥).

كل ما في باطن الإنسان مدعو لتسبيح اللَّه :

[يقول المرتل]: **"سبحي يا نفسي الربَّ"**. لماذا لم يَقْبل التسبيح بالجسد؟ ولأي سبب لم يقل شيئاً خاصاً بالجسد؟ أفَصَلَ بين الاثنين؟ مطلقاً، ولكنه يحثّ الفنان، أي النفس أولاً نحو التسبيح، ولم يفصل الجسد عن النفس. فأنصت إلى ماذا يقول: **"يا اللَّه، إلهي أنت. إليك أُبكِّر. عطشت إليك نفسي، يشتاق إليك جسدي في أرض ناشفةٍ ويابسةٍ بلا ماءٍ"** (مز ٦٣ : ١)، إذ يقول: أرني ياربُّ الجسدَ الذي دُعي لتسبيحك. [يقول المرتل]: **"باركي يا نفسي الربَّ، وكل ما في باطني ليُبارك اسمهُ القُدّوس"** (مز ١٠٣ : ١). أرأيت كيف أن الجسد يشترك مع النفس في سيمفونية موسيقية؟ ولكن ماذا يعني بقوله: **"كل ما في باطني ليبارك اسمهُ القُدّوس؟"** إنه يعني أن الأعصاب، والعظام، والأوردة، والشرايين وكل ذرة دقيقة داخل الإنسان مدعوة لتمجيد الله وتسبيحه.

٣- كيف تقدر أعضاؤنا الداخلية أن تُبارك اللَّه، بالرغم من أنها لا تصدر صوتاً وليس لديها فمٌ ولا لسانٌ؟ يرتل دواد النبي قائلاً: **"السماوات تُحدِّث بمجد اللَّه"** (مز ١٩ : ١). إن السموات لا تمتلك لساناً ولا فماً ولا شفاه، ولكن جمالها يُثير دهشة الشاخصين إليها، فتدفعهم إلى تمجيد خالقهم. هكذا إذن،

الطريقة التي بها يُمجِّد كل ما في باطننا اللَّه. فـإذا فحصـت ما في داخلك، وتأملت ملياً في اختلاف خلقـتهم، ووظـائفهم، وقوتهم، واتفاقهم، وبنيتهم، وموضعهم، ونظامهم، وتناسـقهم، فإنك ستذيع في الحال تلك الكلمات النبوية: "**ما أعظم أعمالك يارب! كُلها بحكمةٍ صنعتَ**" (مز ١٠٤ : ٢٤). أرأيت كيـف أن كـل أعضائنا الداخلية تبارك اللَّه بدون صوتٍ ولا فمٍ ولا لسانٍ؟

ولكن لأي سبب يوجِّه حديثه للنفس؟ حتـى يصـدر مـن الاثنين [أي النفس واللسان] سيمفونية موسيقية. ولأنه، عنـدما ترفع يدك لتصلي ولا تنصت إلى كلام اللَّه، فكيف سيسمع اللَّه صلاتك ويستجيب إليها؟ فحينما يقول: "**سـبحي يـا نفسـي الرب**"، فإنه يقصد أن نسبح اللَّه من أعماق نفوسنا ومن صميم قلوبنا، ولهذا قال بولس الرسول: "**أُصلِّي بالروح، وأُصلِّي بالذِّهن أيضاً**" (١كو١٤: ١٥). إن النفس شأنها شأن الموسـيقار والفنـان، بينما الجسد هو عضو يشغل مكان القيثارة والناي والمزمار.

فمشيئة اللَّه نحوك هى أن يعلِّمك أنك يتحتم عليك أن تُسبحه وتمجده كل حين، وأن تُوحِّد كل هذه الأعضـاء معـاً وبـلا انقطاع لتمجيده. فأصغ إلى بولس الرسول حينما ينـذرنا فـي رسالته إلى أهل تسالونيكي قائلاً: "**صلُّوا بلا انقطاع. اشكروا في كل شيء**" (١تس ٥ : ١٧-١٨). ولأن أعضاءنا متحدة دائمـاً مـع الفنان؛ أي النفس، فيجب علينا أن نُصلي بلا انقطاع. لقد رتل

داود بلسانه: "**سبحي يا نفسي الربَّ**"، أما الآن، وبعد رقـــاده، فإن هذا المزمور يُرتَّل بألسنة لا تُحصى، ليس بألسنتنا فقط بل بألسنة كل المسكونة أيضاً. هل أدركت الآن كيف أنه لم يمت وما زال يحيا معنا بالروح؟ فكيف يموت، ذاك الذي له ألســـنة عديدة مقدار هذه ويتحدَّث بأفواهٍ لا تُحصى؟!

عظمة قوة التسبيح:

إن تسبيح اللَّه هو أمر ذو بركة عظيمة؛ فعندما سبَّح الثلاثة فتية، أطفأوا بهذه الطريقة لهيب أتون النار؛ لم يخمدوا اللهيب، بل نالوا ذلك الذي يستحق الاندهاش وهو أنهم وطئوا بأقدامهم نار الأتون.

إن التسبيح هو الذي حلَّ قيود بولس الرسول لمَّا كان فـــي السجن، وزعزع أساساته، وفتَّح أبوابه، وأحدث زلزلة عظيمة وأرعد حافظ السجن. كان هذا "**نحو نصف الليل كان بولس وسيلا يُصلِّيان ويسبحان اللَّه**" (أع ١٦ : ٢٥). ثم ماذا حدث بعد ذلـــك؟ إن الأمر المدهش والذي لم يسبق له مثيل هو أن القيود تفكَّكـــت، وقَيَّد المقيدون [بولس وسيلا] الأحرار [حافظ الســـجن]. فـــي الحقيقة، إن الدليل على تلك القيود هـــو أن يُحْـــرس الســـجين بإحكام قاسٍ، وأن يصير تحت سلطان نير حـــارس الســـجن؛

ولكن اندفع الآن حارس السجن الحر وخرَّ أمام قدمي بولس السجين.

إن عمل القيود الماديَّة هى أن تضع السجين تحت سطوتها، تحت قوة آلامها، وأن تطرح الأحرار تحت سلطان السجناء، ولكن طوبى للإنسان الذي يتحملها من أجل نعمة المسيح.

وألقوهما في السجن، وأوصوا حافظه أن يحرسهما بشدةٍ، وبينما كانا داخل السجن، انفتحت في الحال كل أبوابه الخارجية. ثم يكمّل لوقا حديثه قائلاً: "وخرَّ لبولس وسيلا وهو مُرتعدٌ" (أع ١٦: ٢٩). وهذا هو نهاية ما جرى من أحداث.

فلماذا تتحيَّر أيها الإنسان، حينما انفتح باب السجن، بينما نال بولس أن يفتح أبواب السموات؛ **"كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطاً في السماء، وكلُّ ما تحلُّونه على الأرض يكون محلولاً في السَّماء"** (مت ١٨ : ١٨).

لقد انحلَّت قيود الخطيئة؛ فلماذا تتعجَّب إذا رأيته [الرب] يحلّ القيود الحديدية؟

فكَّ قيود الشيطان من علينا، وحرَّر أنفسنا التي كانت في قبضته؛ فلماذا تندهش إذا شاهدته يُحطم سلاسل السجناء؟ لاحظ هذا الأمر العجيب من جانبين إذ أنه "حلَّ وربط" أيضاً. حلَّ القيود ولكن ربط القلوب. "فتح وأغلق الأبواب" فتح أبواب

السجن، ولكنه أغلق عيون قلوب السجناء، لئلا ينظروا أن تلك الأبواب كانت مُغلقة، ولئلا يتملَّك عليهم الخوف والرعدة.

أأدركت الآن، كيف أنه يربط ويحل، وكيف يفتح ويغلق؟ كان هذا نحو منتصف الليل، لكي يتم بهدوء وبدون أي اضطراب، ولأنَّ الرسل القديسين لم يفعلوا أي أمراً شهوة في المجد الباطل.

وعندما خرَّ حافظ السجن، ماذا فعل بولس؟ "فنادى بولس بصوتٍ عظيمٍ قائلاً: **لا تفعل بنفسك شيئاً ردِّياً! لأن جميعنا ههنا**" (أع ١٦ : ٢٨). يا له من أمر عجيب لبولس! يا لعناية ويا لمحبة بولس للبشر! فبولس الذي كان مُقيداً تحت حراسة شديدة وبطريقة غير إنسانية، لم يترك الحارس أن يقتل نفسه ولا أن يمسه أي أذى. وأيضاً، انظر إلى نفس العظيم بولس المتضعة، فلم يقل بكبرياء: إن هذه العجائب فعلتها أنا بنفسي، بل نادى الحارس قائلاً له: "**لأن جميعنا ههنا**". فعندما رأى الحارس كل ما حدث، اندهش وتملَّك عليه الخوف وشكر اللَّه.

٤- كان حارس السجن مستحقاً بالحقيقة عناية بولس ومحبته العظيمة؛ فلم يظن [الحارس] أن ما حدث كان أعمالاً سحرية. ولماذا لم يظن هكذا؟ اصغ إلى [بولس وسيلا] وهما يسبحان اللَّه، فالسحرة لا يسبحون اللَّه مطلقاً. ولقد كان أيضاً

داخل السجن كثيراً من الدجالين المقيدين، ولكن لم يصدر منهم أي عمل مثل هذا يمكنه أن يحل القيود، أو يُظهر أية عناية لحافظ السجن.

لم يفضّل بولس الرسول أن يهرب، بل مكث داخل السجن لكي يُخلِّص الحارس من الموت. يخبرنا أيضاً لوقا البشير أن حافظ السجن اندفع إلى داخل ممسكاً بيده سيف ومصباح؛ والشيطان أراد في هذه اللحظة أن يبدِّد هذه الفرصة للتوبة، ولكن عندما ناداه بولس بسرعة وبصوت عظيم، فاز بخلاص نفس حافظ السجن. يقول [لوقا أن بولس] لم يُنادي فحسب، بل نادى بصوتٍ عظيمٍ قائلاً: "**لا تفعل بنفسك شيئاً رديّاً! لأن جميعنا ههنا**". فحينئذٍ تعجَّب حافظ السجن من عناية بولس العظيمة، فخرَّ أمام السجين الحر قائلاً: "**يا سيِّديَّ، ماذا ينبغي أن أفعل لكي أخْلُص**" (أع ١٦ : ٣٠).

أتبحث لكي تجد طريق الخلاص والتوبة؟ أرأيت نفساً ملتهبة مثل هذه نحو خلاصها؟

لم يُرجئ خلاصه، بل حينما ابتعد عنه الخوف، ولمست قلبه محبة اللَّه، اندفع في الحال نحو خلاص نفسه. فبالرغم من أن الوقت كان نحو نصف الليل، إلاَّ أنه لم يقل: سأفكر في هذا الأمر باكراً، بل هرع نحو الخلاص.

يا لهذا الإنسان العجيب! يا لِعظم شهوته نحو الخلاص والتي جعلته يتخطَّى الطبيعة الإنسانية!

حسناً قال: "**يا سيدي، ماذا ينبغي أن أفعل لكي أخْلُص**". إن أولئك الذين آمنوا على أيدي الرسل لم ينجذبوا بواسطة الآيات التي صنعوها فقط، بل انجذبوا بواسطة طريقة حياتهم أيضاً. لهذا يقول السيد المسيح: "**فليُضىء نُوركم هكذا قدَّام الناس، لكي يروا أعمالكم الحسنة، ويمجِّدوا أباكم الذي في السموات**" (مت ٥ : ١٦). انظر أيضاً إلى نفس بولس؟ فإنه لم يؤجِّل توبة الحارس ولم يهمله، ولكنه بينما هو أسير، ومقيَّد بالرباطات، وجسده مليء بجراحٍ كثيرةٍ: "**كلَّماهُ وجميع من في بيته بكلمة الرب**" (أع ١٦ : ٣٢)، فاعتمد في الحال هو والذين له أجمعون، وقدَّم لهما مائدة.

ولأي سبب تزعزعت أساسات السجن؟ لأنه أراد أن يوقظ حافظ السجن لكي يرى ما حدث؛ حلَّ قيود السجناء الماديَّة، حتى يحلَّ رباطات حافظ السجن الروحيَّة. نلاحظ أن السيد المسيح فعل عكس ما فعله بولس، فعندما قدموا له مفلوجاً مُصاباً بشلل مزدوج، واحد بسبب الخطيئة والآخَر شلل جسدي، شفى المسيح أولاً ذاك الشلل [الروحي] الذي أصابه بسبب الخطيئة قائلاً له: "**يا بُنيَّ، مغفورة لك خطاياك**" (مر ٢ : ٥)، وبعد ذلك قال للمفلوج: "**قُم واحمل سريرك واذهب**

إلى بيتك!" (مر ٢ : ١١). شفى السيد المسيح أولاً المرض الروحي ثم المرض الجسدي، ولكن قد حدث العكس في حادثة بولس الرسول مع حافظ السجن، حل أولاً القيود الماديَّة ثم الروحيَّة.

دائماً ما يُقترن الصوم بالصلاة:

أرأيت عظمة قوة التسبيح، وعظمة تمجيد اللَّه في الصلاة؟ مقتدرة هى قوة الصلاة، فهى تجعل النفس قوية جداً لاسيما إذا أقترنت بالصوم. ولهذا السبب، تربط الكتب المقدسة الصلاة بالصوم. ولكن كيف ومتى؟ تأمل ملياً معي في تلك الآيات: **"لا يسلُب أحدكُم الآخَر، إلاَّ أن يكون على مُوافقة، إلى حينٍ، لكي تتفرَّغوا للصوم والصلاة"** (١كو ٧ : ٥)، وأيضاً: **"وأما هذا الجنس فلا يخرج إلاَّ بالصَّلاة والصَّوم"** (مت ١٧ : ٢١)، وفي موضع آخَر يقول: **"فصاموا حينئذٍ وصلُّوا ووضعوا عليهما الأيادي"** (أع ١٣ : ٣).

٥- ألاَ ترى أن الصلاة متحدة دائماً بالصوم؟ فينبغي علينا أن نقترب إلى اللَّه ونتحدَّث معه بالصلاة، فيصير هو وحده شهوتنا. لأننا إذا أردنا أن نقول شيئاً مهماً لأصدقائنا، فإننا نأخذهم إلى مكان ما على إنفراد وهكذا نتحدث معهم. فكم بالأحرى يكون هذا الأمر حينما نتحدَّث إلى اللَّه؛ فإننا ندخل

إلى مخادعنا ونغلق الباب ونصلي، وفي هذه الحالة نصير في سكينة عظيمة وننال ما وُعدنا به. وإذا كنا نتضرَّع إلى اللَّـه من أجل منفعة نفوسنا، فإننا سنفوز بكل الخيرات.

وأيضاً إن الصلاة تصير صلاحاً عظيماً، عندما تنبع من قلب مُفعم بالشكر والنقاء الروحي. ولكن كيف تصير قلوبنا مفعمة بالشكر؟ إن جعلنا نفوسنا تعتاد لا على أن تأخذ فحسب، بل أن تشكر اللَّه أيضاً عندما يستجيب لها.

فاللَّه تارة يعطينا ما نطلبه وتارة لا يعطينا، ولكنه يفعل هذا من أجل منفعتنا. سواء نلت أو لم تنل [ما طلبته في الصلاة]، فإنك نلت ما لم تنله؛ وسواء استجاب اللَّـه لصلاتك أو لم يستجب؛ فإنك فزت بما لم تسأله. إن هذا الأمر يحدث حينما لا نأخذ من اللَّه ما نطلبه، وإن لم يكن يعطينا ما نطلبه لأجل منفعتنا، فما كان يهبنا أي شيء، وإذا لم يستجب إلى طلبتنا من أجل منفعتنا، فإن هذا يعتبر في حد ذاته إستجابة.

فأحياناً كثيرة يعطينا اللَّه ما نسأله، ليس لأنه يريد أن يبعدنا من أمامه، بل لأن إمهال اللَّه في استجابته يهبنا اللجاجة في الصلاة. وعندما ننال ما نطلبه، فإننا نفقد غَيْرتنا نحو الصلاة، أما عندما يتأنَّى اللَّه في استجابته؛ فإنه يريد بذلك أن نزيد من أسهارنا في الصلاة. مثل الآباء العطوفون الذين يفعلون هكذا نحو أبنائهم غير المبالين الذين يهرعون تجاه الألعاب، فإنهم

يضبطونهم دائماً على وعد بهدية عظيمة؛ فتارة يوفون بوعدهم وتارة أخرى لا يستجيبوا. فدائماً لا يبدو الذي نطلبه أنه من أجل منفعتنا، بل اللَّه - الذي يعرف ما يتفق معنا - لا يعطينا ما نطلبه في صلواتنا، بل يعتني دائماً بمنفعتنا التي لا ندركها نحن.

يا له من أمر يستحق الاندهاش، إن لم نسمع ماذا حدث مع بولس الرسول؟ فهو أيضاً لم ينل ما كان يسأله من اللَّه، ولكنه لم يتذمَّر، بل كان يشكر اللَّه دائماً قائلاً: "**من جهة هذا تضرَّعت إلى الرب ثلاث مرات أن يُفارقني**" (٢كو١٢ : ٨). "**ثلاث مرات**" تعني هنا مراراً كثيرة. فإذا لم يكن بولس الرسول قد تضرَّع إلى اللَّه مراراً كثيرة، ما كان لينل سُئل قلبه. فكم بالأحرى نحن، إذ ينبغي علينا أن نُصلي بلجاجة في ما نتضرَّع به إلى اللَّه.

ولأنه [بولس] سأل اللَّه كثيراً من جهة هذا الأمر ولم ينله، فلنرى كيف كان تصرفه إزاء أن اللَّه لم يستجب له؟ لم يحزن، بل افتخر بأنه لم ينل ما كان يسأله من اللَّه وقال: "**من جهة هذا تضرَّعت إلى الرب ثلاث مرات أن يُفارقني، فقال لي: تكفيك نعمتي، لأن قوَّتي في الضعف تُكمَلُ**"، وأضاف: "**فبكلِّ سرورٍ أفتخرُ بالحريِّ في ضعفاتي**" (٢كو١٢: ٨ - ٩).

٦- أرأيت ماذا فعل [بولس]؟ سأل اللَّـه أن يُخلِّصه من ضعفه، لم يتذمَّر بل كان يفتخر دائماً في ضعفاته. هكذا نحن أيضاً، فلنشكر اللَّه سواء استجاب أو لم يستجب لسؤالنا، لأنه لا يفعل هذا سوى لمنفعتنا. فإن كانت الاستجابة تتعلَّق بسلطان اللَّه أن يُعطينا، فيخص سلطانه أيضاً متى يُعطينا، وماذا يُعطينا وما لا يُعطينا. أنت لا تعرف أين وما هي منفعتك، ولكن اللَّه يعرفها جيداً جداً.

أحياناً أنت تطلب أموراً خطرةً ومُضرةً، ولأن اللَّـه يهتم بخلاص نفسك، فإنه لا ينظر إلى سؤالك، بل قبل كل شيء تهمه منفعتك دائماً. فإذا كان الآباء الجسدانيون لا يعطون أولادهم ما يسألون، ليس لأنهم يزدرون بهم، بل لأن ما يهمهم هو منفعة أولادهم فقط، فكم بالأحرى اللَّه الذي أحبنا حتى الموت والذي يُدرك أين هي منفعتنا.

فلنصلِّ يا أحبائي دوماً، ليس طوال أيام هذا الأسبوع فحسب، بل طوال ليالي حياتنا. أنصت إلى ما يقوله النبي في المزمور: **"في منتصف الليل أقوم لأحمدك على أحكام برِّك"** (مز١١٩ : ٦٢). فبالرغم من أن داود كان إنساناً وملكاً وأُعطِي سلطاناً على الشعوب والمدن والأمم، ويعتني بسلامهم ويوقف الحروب، وعلى عاتقه الكثير من شئون المملكة التي لا تُوصَف والتي لا تتركه حتى ولو للحظةٍ واحدةٍ حتى

يستريح، إلاّ أنه كان يُزيد من صلواته ليس طوال النهار فحسب، بل طوال الليل أيضاً.

فإذا كان الملك يعيش وسط التنعم والتلذذ وعليه أن يعتني بمملكته وشئونها؛ فإنه لا يقدر أن يصلي وينعم بالسكينة الداخلية ولو حتى لليلةٍ واحدةٍ، لكن كان داود يُصلِّي بشهوة واحتراز أعظم من المتوحدين الساكنين في الجبال.

أخبرني، أي غفران سننناله، ونحن نحيا في رخاءٍ ورفاهيةٍ، ونرقد كل ليالي حياتنا، ولا نُعطي أي اهتمامٍ لقانون صلواتنا اليومي.

الصلاة هى أمُّ الفضائل:

إن الصلاة سلاحٌ عظيمٌ، سلام داخلي، ميناء، كنز الصالحات ونبع لا ينضُب. فعندما نحتاج إلى مساعدة الآخرين، فإننا ننفق الأموال، ونتملَّقهم، ونقوم بزيارات كثيرة من أجل التفاوض. لأنه من غير الممكن أن يتحدَّث أحد ما مباشرة مع الرؤساء، بل لابد أن يتملقهم أولاً بالأموال وبالكلام، وحينئذ يقدر بالوساطة أن ينال ما يطلبه.

ولكن هذا الأمر لا يحدث مع اللَّه؛ فإنه لا يهب نعمته بمنتهى السهولة حينما يتضرَّع إليه الآخرون [كوسطاء لنا]، بل حينما نتضرَّع إليه نحن بأنفسنا. وفي هذه الحالة، فإننا نربح

سواء نِلنا ما نطلبه أو لم ننله، أما عندما نطلب أي أمر من الآخرين فإننا نخسر سواء أخذنا ما كنا نطلبه أو لم نأخذه.

ولأننا نقتني منفعة عظيمة لأنفسنا عندما نقترب إلى اللَّه، فلا نعد نزدري بعد بالصلاة. لأنك في الصلاة سوف تتحدَّث إليه وتتصالح معه، وعندما تتضرَّع إليه أنت بنفسك بقلبٍ نقيٍ وبفكرٍ طاهرٍ، فإنه سيهبك ما كنت تسألُه. لا تتضرَّع إليه بتهاونٍ، ذلك الأمر الذي يفعله الكثيرون، فبينما تنطق شفاههم بأقوال الصلاة، تجد نفوسهم مشتتة في أماكن كثيرة في المنزل، وفي السوق، وفي الشوارع. وهذا هو الفخ الذي يحاول الشيطان أن يوقعنا فيه، لأنه يعرف جيداً أننا في وقت الصلاة ننال غفران خطايانا، ولذلك يريد أن يعوقنا من الوصول إلى ميناء الصلاة. ففي ساعة [الصلاة] يهيج العدو علينا محاولاً أن يفصل فكرنا عن الصلاة حتى نخرج من أمام اللَّه خاسرين ولا نصير رابحين.

فكِّر، أيها الإنسان، حينما تتقدَّم إلى اللَّه إلى من ستأتي، واعْلَمْ أن النعمة التي سيهبك إياها [في الصلاة] سوف تكفيك.

ثَبِّتْ أنظارك نحو السماء دوماً، وتأمَّل مع من ستتحدَّث. لأنه إذا تحدَّث إنسانٌ ما مع شخصٍ ذي كرامة أرضية، وما زال مهتماً بالآخرين، فإنه في الحال يركِّز [معه] ويصير

أكثر انتباهاً، فكم بالأحرى نحن، فإن انتبهنا إلى أننا نخاطب رب الملائكة، فإننا سنكون متيقِّظين...[٤].

أحبائي، إننا نقبل الآلام من خاصتنا كل يوم، ومن الغرباء، ومن جيراننا سواء في السوق أو في المنزل، لكننا في الصلاة نداوي كل هذه الجراح. فإن أتينا إلى اللَّه بفكرٍ عفيفٍ، وبنفس ملتهبة ومتلهِّفة نحوه، وسألناه المغفرة، فإنه سيهبنا غفران خطايانا الذي نشتاق إليه جميعاً. بنعمته ومحبة ربنا يسوع المسيح للبشر، الذي له المجد مع أبيه الصالح والروح القدس إلى دهر الداهرين. آمين.

فصل ألوان وطباعة: مطبعة دير الشهيد العظيم مارمينا العجائبي بمريوط
موبايل: ٠١٢ .٥٥٥.٤٤١ & ٠١٢ .٥٥٥.٤٤٢ & تليفاكس: ٠٣ ٤٥٩٦٤٥٢

[٤] قمنا هنا بحذف بعض كلام القديس يوحنا الذهبي الفم، لأنه سبق أن ذكره مراراً في الفقرة التي تخص الصلاة. (المترجم)







أحبائي، إننا نقبل الآلام من خاصتنا كل يوم، ومن الغرباء، ومن جيراننا سواء في السوق أو في المنزل، لكننا في الصلاة نداوي كل هذه الجراح. فإن أتينا إلى اللَّه بفكرٍ عفيفٍ، وبنفس ملتهبة ومتلهِّفة نحوه، وسألناه المغفرة، فإنه سيهبنا غفران خطايانا الذي نشتاق إليه جميعاً. بنعمته ومحبة ربنا يسوع المسيح للبشر، الذي له المجد مع أبيه الصالح والروح القدس إلى دهر الداهرين. آمين.

"يوحنا الذهبي الفم"

المركز الثقافي القبطي الأرثوذكسي
الكاتدرائية المرقسية بالأنبا رويس
٢٢٢ ش رمسيس بالعباسية - القاهرة - مصر

تليفون: ٢٤٨٨ ٢٥٣٠ - ٢٤٨٢ ٦١٦٣ (٠٢)
فاكس: ٢٦٨٥ ٥٥٤١ (٠٢)

E-mail: info@copticocc.org www.copticocc.org